

د. عبدالوهاب عبدالمقصود إبراهيم

حقّق الإنسان في القرن الأخير تقدماً علمياً باهراً وتفوقاً تكنولوجياً ظاهراً، مكنه من بسط سلطانه وفرض سيطرته على كافة أرجاء المعمورة واستخراج ثرواتها الظاهرة والكامنة ثم استغلالها لتحقيق أمنه ورفاهيته، فما هو ذا يرسل السفن الفضائية والأقمار الاصطناعية، التي تجوب الكون، تسبر أغواره، وتستكشف أسرارها، ما هو ذا يجلس متكئاً على أريكته في قعر بيته، ويلمس من أصبعه على جهاز التحكم عن بعد يرى ما يشاء، ويسمع ويتحدث ويتواصل مع من يشاء، وينعم بالدفء في البرد القارس وينعم بالنسيم المبرّد في الحر القاتظ، ويغسل ثيابه ويفتح أبوابه....

وعلى الرغم من نجاح الإنسان المبهر في ترويض الوحوش الكاسرة والقضاء على الكثير من الأمراض الفتاكة، على الرغم من كل ذلك وقف هذا الإنسان بلا حول ولا قوة أمام الحشرات. كائنات صغيرة الحجم، لا تعرف الكسل ولما يصيبها الملل أو الدوهن، تجوب العالم، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، دون أن تعترف بحدود إقليمية ولما تعباً بموانع أو سدود أو جنسيات، منها ما يقطن الفياض والقفار ومنها ما يخر عباب عذب الأنهار وأجاج البحار.

ومنها ما يمتطي ظهر الريح متى شاء وأنى شاء، ومنها ما يدب على سطح الأرض، ومنها ما يلج في باطنها، تجدها في السهول المنبسطة وعلى قمم الجبال الشاهقة وفي باطن الكهوف المظلمة، منها ما يسكن الحدائق الغناء بين الورود والرياحين ومنها ما يعيش في القبور المظلمة يقاتل على جيف الإنسان والحيوان، ومنها ما يعيش في أنفاق داخل النباتات والأشجار ومنها ما يستطيع العيش في المناطق الشديدة البرودة، فقد وجد العلماء أكثر من 300 نوع منها في القطب الشمالي، ومنها ما يعيش في صحراء قاحلة مثل بعض مناطق الصحراء الليبية التي قد تجاوز درجة الحرارة فيها 60 درجة مئوية، كما وجد العديد من أنواعها في عيون المياه الحارة، بل وبرك النفط!! بل ووجدت منها بعض الأنواع التي تعيش بصفة دائمة على سطح الماء في المحيطات.

لقد فاقت تلك الكائنات جميع المخلوقات في عدد أنواعها، إذ فاقت أنواعها المليون، وهي تمثل 76% من المجموع الكلي للمملكة الحيوانية و 51% من جميع أنواع الكائنات الحية. توشك أن تنظر إلى السماء وتخاطب الماء الذي في المسحاب قائلة له: شرق أو غرب فإن لي من الخير الذي تفيض به نصيب. ولأشك أن هذا النجاح الساحق لهذه المجموعة من الكائنات وانتشارها الكبير له أسباب عديدة، فهي صغيرة الحجم، قليل من الغذاء يكفيها وشق صغير في الأرض يأويها، لها هيكل أقوى من العظام ومعضلات مفتولة تستطيع بها أن تحمل أو تجر عشرات أضعاف وزنها، فهي بلا جدال بطلة العالم في حمل الأثقال وجبر الأحمال، وتقفز للأعلى والأمام عشرات بل مئات أضعاف طولها، فهي بلا غرو بطلة العالم في الوثب العالي والطويل.

فإذا كان بطل العالم في الوثب العالي يقفز لارتفاع لا يتجاوز مثلي طولها، فإن البرغوث الذي يبلغ طول رجله 1.3 مم يقفز لارتفاع قد يصل إلى 21 سم ولمسافة قد تصل إلى 34 سم، وإذا أراد الإنسان أن يجارى هذا البرغوث في البطولة فعليه أن يقفز لارتفاع 450 قدم ولمسافة 700 قدم، وأنى له أن يفعل. وتستطيع الخنافس أن تسحب ثقلاً يعادل ثقل جسمها 120 مرة، ولكي يبلغ إنساناً وزن 75 كيلوجرام شأوها فعليه أن يسحب ثقلاً يبلغ 9 أطنان، وأنى له ذلك. لقد وهب الله هذه الكائنات قدرة فائقة على التكاثف وتحمل المشاق والصعاب... وللكثير منها القدرة على الطيران الذي يساعدها في البحث عن الغذاء والهرب من الأعداء، ويمكنها من الوصول إلى الجنس الآخر في الوقت والمكان المناسب لإتمام التزاوج كما يساعدها في إيجاد المكان المناسب لوضع البيض. وتتميز هذه الكائنات بعناد شديد يمكنها دائماً من الحصول على ما تريد وقتما تريد، والذبابة خير مثال على ذلك، فقد اشتق اسمه من كونه إذا ذب عن الشئ أب.

وللحشرات قدرة كبيرة على التخفي والمحاكاة، فبعضها يتلون بلون البيئة التي يعيش فيها، فلا يمكن للأعداء تمييزه عنها، وبعضها يتلون بألوان بعض الحشرات المسامة، فيفزع منها الأعداء ويرهبون جنابها.

وتمر الحشرات خلال حياتها بتغير كبير في الشكل، يسمى التحول، فمن يصدق أن الفراشات الرقيقة ذات الألوان البديعة، التي تكتفي بقليل من رحيق الأزهار كانت يوماً بيوضاً صغيرة لا تكاد تدركها العين ثم أصبحت ديدان شرهة تجول بين أوراق الأشجار فتقضي عليها، ثم تصبح عذارى لا تأكل ولا تتحرك يحسبها الرائي جماداً لأحياة فيه وهي تموج أثناء تحولها بتغيرات رهيبية فيتحول فمها من فم قارض إلى خرطوم لامتصاص رحيق الأزهار، ويتكون لها أجنحة وأعضاء تناسل، والعديد من التغيرات في الشكل والتركيب، ومن

يصدق أن البعوض الذي يمتص الدماء ويطير في الهواء كان يوماً دودة تسبح في الماء، ومن يصدق أن الذباب الذي لا يتغذى إلا على حلو الشراب وتعشق الضوء كان يوماً ديداناً صغيرة تأكل القمامة والروث ولما تطيق أن ترى بصيص النور.

عجبا لهذه الكائنات التي صارت الإنسان وناوخته على مر الزمان، كم سببت من أضرار، وكم دمرت من مساكن، وكم أتلقت من أثاث، وكم قضت على حضارات. إنها تهاجم الزرع، تأكل جذوره وتنخر بذوره وتحفر سوقه وتقرض أوراقه، وتمتص عصاراته وتعيث فساداً في ثماره، إنها لا تكتفي باتخاذ الزرع غذاءً ومأوى لها ولصغارها بل تضع فيه وعليه بيوضها وتنقل إليه الكثير من الأمراض البكتيرية والفيروسية والفطرية المهلكة. تلك الكائنات الصغيرة تحمل في جعبتها وعلى ضآلة شأنها الدمار الماحق للإنسان وحيواناته الأليفة، فبعض الحشرات تنقل مسببات العديد من الأمراض الفتاكة التي عاقت وما تزال تعوق تقدم الجنس البشري في مناطق شاسعة من العالم.

هذه ذبابة المتسي تسي، إنها ليست أكثر من ذبابة ولكن اسمها يوحي لأكثر من نصف سكان إفريقيا بكابوس ثقيل يهدد حياتهم ويقضي على ماشيتهم بما تحمله من كائنات مجهرية تسبب مرض النوم المقاتل، ففي مناطق المسافانا المنتشرة في جنوب الصحراء الكبرى تهدد المتسي تسي حياة أكثر من خمسين مليون أفريقي ينتمون لثماني وثلاثون دولة بالإضافة إلى مئات الملايين من الأبقار والأغنام والخيول. ويقال إن هذه الذبابة وقفت منذ حوالي ألف عام عائقاً أمام المد الإسلامي في إفريقيا بعد أن قتلت الكثير من الدواب التي يمتطيها الدعاة ومعلمي الناس الخير عند وصولهم لتخوم المناطق الموبوءة.

وهذه البعوضة، مخلوق صغير الحجم، عظيم القدر، بالغ الضر على من سلطها الله عليه من العباد، ورغم صغر حجمها وضآلة شأنها فإن الدنيا كلها لا تساوي عند الله جناحها، ولو كانت الدنيا تساوي عند الله جناحها ما سقى الكافر منها شربة ماء ولذلك ضرب الله بها المثل في كتابه الحكيم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُ فَوْقَ مَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا لَا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: 26).

إن البعوض ليس إلا كتيبة من الجنود التي زودت إناثها بالأسلحة والمعدات وأجهزة الاستشعار عن بعد ومناظير الرؤية الليلية التي تمكنها من الماهتداء لعائلها ومص دماؤه دون خلل أو فشل. إن أنثى البعوضة وفي الظلام الدامس تهتدي لهدفها بواسطة درجة الحرارة المنبعثة من بدنه وشم رائحة جسده وأنفاسه المميزة ثم تتخير مكان من الجلد غني بالأوردة الدموية، ثم وبخفة ومهارة ودقة بالغة تقوم بثقب الجلد بواسطة عدد من الإبر المسننة، ثم تقوم بإفراز مواد لعابية تحمل إنزيمات تمنع تخثر الدم وتعمل على سيولته وتزيد من توارده لمكان الثقب، وهنا تبدأ عملية مص الدماء. ولما تقتصر المشكلة على ما يسببه لدغ البعوض من حكة أو سلب دماء ولكن وأثناء صب اللعاب المانع لتخثر الدم، تنتقل العديد من مسببات الأمراض المهلكة للإنسان مثل الملاريا والفيلاريا وحمى الوادي المتصدع وحمى الضنك وحمى غرب النيل والحمى الصفراء.

وهناك جيوش أخرى من مصاصي الدماء مثل البراغيث التي تنقل مرض الطاعون والقمل الذي ينقل مرض التيفوس وذباب الرمل الذي ينقل مرض اللشمانيا. ألم تر كيف سلط الله بعض الحشرات لتصب العذاب على بعض المعرضين من عباده، ألم تر إلى النمروذ الذي حاج نبي الله إبراهيم عليه السلام في ربه وادعى أنه يحيى ويميت فسلط الله عليه حشرة صغيرة فدلّت إلى رأسه تسوّمه سوء العذاب، فكان أكرم الناس عليه من يضربه بالنعال على رأسه. قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ إِلَّا مَا ذَرَىٰ لِلْبَاشِرِ) (الممدثر: 31)

وهاهو الجراد، يزحف بجيوشه إلى من شاء الله من خلق الله في أسراب وحشود منظمة تثير المرعب والفرع والذعر في قلوب المزارعين والمختصين، إنها تطير في تنظيم عجيب وسرب مهيب وتحط على كل أخضر خصب فتحيله إلى صعيد، إن الجراد يطير لمسافات بعيدة، وبلا توقف فهي أسرابه تعبر البحر الأحمر بانتظام (حوالي 300 كم) وقد تقطع الجراد الواحدة 500 كيلومتر في اليوم الواحد، دون أن تحتاج للتوقف لملأ خزائنها وقودها، وذلك بما لديها من قدرة عضلية تمكنها من الرفرقة بالجناحين لمدة تصل إلى ستة عشر ساعة في اليوم، فمن الذي أمدها بكل هذه الطاقة اللازمة لبذل هذا الجهد بلا توقف، إن جيوش الجراد الجرارة وغير العاقلة تتصرف بطريقة دقيقة في التجمع والتوجيه والحل والترحال، وكيف لا وهي من جيوش الحق وجنود الملك سبحانه وتعالى وصدق الله العظيم المقاتل: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) (الأعراف: 133).

إن الجراد الصغيرة غير المناضجة تأكل قدر وزنها من النباتات الخضراء فإذا كانت هذه الحشرة تزن جرامين وإذا كانت جموع الجراد في بعض الأسراب تصل إلى 8 مليار جرادة، تزن حوالى 16000 طن فإنها تأكل في اليوم الواحد مايطعم 2.4 مليون رجل (من

إحصائيات منظمة الأغذية والزراعة المسماة اختصاراً باسم الفاو، وقد يتبادر إلى ذهن البعض أن استخدام القوة المفرطة من الرش بالمبيدات واستخدام الطائرات قادر على صد جيوش الجراد الجاررة، ولكن أنى له ذلك والجراد دائماً يختار وقت ومكان المعركة ودون سابق إنذار، ثم إن ما يسلطه الإنسان على الجراد من مبيدات يرتد إليه في صورة ملوثات تهلكه وتفسد زهرة وضربه.

وإذا أردت أن تعرف الأثر المدمر لبعض تلك الكائنات فانظر إلى حشرات الحبوب المخزونة التي تأكل ما يقرب من ثلث إنتاج العالم من الحبوب في الوقت الذي لا يجد فيه الملايين من البشر، وفي عصر التصحر والجفاف ما يسد رمقهم. وانظر إلى الأرضة (دابة الأرض)، أو ما يطلق عليه البعض النمل الأبيض، التي تحيل البيوت العامرة إلى أطلال خربة.

وكما أن هناك جنوداً من الحشرات تفتك بمن شاء الله من العباد، هناك من الجنود ما يحمل الخير، كل الخير لبني الإنسان. لقد لخص الأمام على كرم الله وجهه حقيقة هذه الدنيا عندما قال محقراً من شأنها (خير طعام بن آدم من رجيع نحلة (يقصد العسل) وخير لباسه من لعاب دودة (يقصد الحرير الذي تصنعه دودة القز)، ليس من العجب أن يكون أفضل لباس يزهو به بني آدم وأعظم طعام ودواء لبني آدم من صنع الحشرات.

لقد أوحى الله إلى النحل قلبى أمر ربه فبنى بيوتاً يضرب بها المثل في دقة التصميم وسرعة التنفيذ وسلك سبل ربه فأخرج شراباً فيه شفاء للناس، وقد ظن البعض أن خير النحل مقصور على ما يصنعه من العسل وأغفلوا الفوائد الجمة لما ينتجه النحل من غذاء ملكي، وسم، وعكبر وما يجمعه من حبوب اللقاح. والعجيب أن كل هذا الخير لا يقارن بالمكاسب المضخمة التي يجنيها المزارعون من تلقيح النحل لزروعهم ورفع إنتاجها من الثمار أضعاف المرات.

ومنذ قديم الأزل وعى الإنسان أخطار هذه الحشرات ومضارها، فلم يهادنها، بل حاربها بكل ما تفتق عنه الذهن من وسائل وأنشأ من أجل ذلك المعاهد العلمية ومراكز الأبحاث، عله يفلح في القضاء عليها أو الحد من أخطارها، ولكنه وباللحسرة لم يفرق في حربه لها بين العدو منها والصديق، بين من يقدم له الغذاء ومن يدمر له الغذاء، بين من يلحق له النبات ومن يدمر له النبات، بين من يقدم له الشفاء والدواء ومن يصيبه بالداء، من يقدم له الحرير وهو أجمل وأنعم أنواع الكساء ومن يدمر له الرياش والكساء. فكان أن ارتدت أسلحة الإنسان إلى نحره وأصبح تدبيره تدميره فوقف حائراً مقهوراً، فبعد أن أنفق المليارات من الدولارات وأفنى الوقت والجهد والعتاد في الحرب مع الحشرات بعد أن صور له خياله المريض ونهمه الجشع أنه سينعم بالسعادة والرفاهية إن هو أفناها، فأسرف في استخدام المبيدات ثم أفاق ولكن متى أفاق؟

لقد أفاق بعد أن غزت سموم المبيدات كبده وکليتيه وقلبه وسائر بدنه وأفسدت زرعته وأهلكت ضربه، وزاد من حسرته أن الحشرات خرجت من هذه المعركة ظافرة، وفي كل مرة بعدما ينقشع غبار مبيداته، تلملم شتاتها وتنظم صفوفها ثم تهز قرون استشعارها وتمضى في سبيلها تنتظر ما يفعل الله بها، أليست خلقاً من مخلوقاته وجنوداً من أجناده.